

## ما بعد الحداثة - مقارنة تحليلية نقدية للمفهوم والتجربة -

هاشمية علي رسلان<sup>(1)</sup>

امتدّت المناظرات النقدية في مصطلح الحداثة، على مدى خمسة قرون متّصلة من التاريخ الثقافي الأوروبي، لتخرط في فضاء مفهوم جديد بدأت علاماته تظهر مع النقد الذي طاول عصر التنوير منذ أواخر القرن الثامن عشر، ثمّ شاع بقوة خلال القرن العشرين المنصرم؛ ذلك ما عُرف بمفهوم «ما بعد الحداثة». فما الذي يعنيه هذا المفهوم وما الذي يدلّ عليه؟

### 1- المفهوم في دلالاته الاصطلاحية واللفظية:

قد يكون من الضروريّ استهلالاً تسجيل بديهية معرفيّة؛ مؤدّاهَا: أن "ما بعد الحداثة" هو مفهوم ينتمي إلى سلالة الحداثة، ولا ينفصل عنها البتّة، وبيان ذلك: أنّ مفهوم ما بعد الحداثة (Postmodernism) يرتبط عضويّاً بما قبله، ولولا الحداثة؛ بوصفها مفهوماً وحادثاً تاريخياً وحضارياً؛ لما أمكن تداول ما بعد الحداثة؛ ليصبح مفهوماً شائعاً تدور حوله ومن خلاله مناقشات لا نهاية لها.

مثل كثير من المفاهيم، اشتهر مفهوم ما بعد الحداثة (postmodernism) بصعوبة تحديده. ومن البين أنّنا نجد تعريفات مختلفة عنه؛ باختلاف الفروع المعرفية التي وسّمها بميسمِه. ففي علم الاجتماع يُقدّم المفهوم

(1) باحثة في علم الاجتماع السياسيّ، من لبنان.

توصيفاً لما يجري في العالم المعاصر. فهو يشير من جهة إلى تهاوي كثير من الافتراضات التقليدية بشأن الهوية الاجتماعية. ويشير أيضاً إلى أنّ تنامي الإعلام الجماهيري، وما يشتمل عليه من صور متعددة الأشكال ودائمة التجدد، قد قوّض جذرياً أيّ استقرار للمعنى. ومن جهة ثانية يمثل هذا المفهوم تحدياً للنظريات الحداثيّة؛ بإنكاره وجود معايير كونية شاملة يمكن أن نحكم من خلالها على قيم الحداثة الأولى؛ مثل: "التقدم"، أو "الحرية"، أو "المعرفة"؛ لذا ترى ما بعد الحداثة النظريات الحداثيّة التي تطلق دعاوى "كونية" أنها معطيات "كليانية"، شمولية وطغيانية في واقع الأمر. في حين تلحّ في المقابل على تعددية العالم الاجتماعي ووفرة تضارب الآراء المختلفة التي تعمل فيه<sup>(1)</sup>.

وينظر بعض علماء الاجتماع المعاصرين إلى "ما بعد الحداثة"؛ باعتباره أحد المصطلحات الأشدّ مراوغة وغموضاً في العلوم الإنسانيّة، وبخاصّة العلوم الاجتماعيّة. وقد برز هذا المصطلح في أواخر سبعينيّات القرن العشرين، ولا تزال آثاره محسوسة، على الرغم من أفول شعبيّته في السنوات الأخيرة.

من الناحية اللغويّة، تدلّ «ما بعد الحداثة» على استمرار أمر ما لم ينجز رحلته بالكامل. وبهذا التعريف الذي له صلة وطيدة بتشكّل المصطلح يدلّ على أنّ الحداثة لم تنته، وأنّ ما بعد الحداثة هي استمرار لها بمناهج ووسائل أخرى.

ومثلما تعامل فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع، مع مفهوم الحداثة؛ باعتباره مفهوماً تعدّدت تعريفاته، كذلك كان شأنهم مع مفهوم ما بعد الحداثة. ربّما لهذا السبب وسواه، لم يكن ثمة توافق وإجماع على تعريف واحد. في هذا الصدد قرّر الفيلسوف الفرنسيّ جان فرنسوا ليوتار أنّ

(1) انظر: هاو، آلن: النظرية النقدية - مدرسة فرانكفورت -، ترجمة: ثائر ديب، الإسكندرية، المركز القومي للترجمة؛ دار العين للنشر، 2010م، ص 273.

العصر المابعد حدثويّ هو عصر التشكيك وموت التعاريف المنطقية. فالتشكيك برأيه، هو نتيجة حتمية للتطور الحاصل في العلوم؛ ذلك أنّ ما يمكن أن يُقوّم بوصفه ثقافة معاصرة؛ من قبيل: موسيقى الروك، ومشاهدة البرامج الغربية، وتناول وجبات ماكدونالدز...، إنّما هو نمطٌ من أنماط ما بعد الحداثة. ويمكن تلخيص التحديدات التي قال بها ليوتار عن ما بعد الحداثة؛ بما يلي:

- أنّها نهاية عصر ابتكار النظريات أو النظريات الشاملة في مجال السياسة والاجتماع.

- أنّها تدلّ على فقدان نظرية مطلقة في مجال الأخلاق والقيم.

- أنّها تشكيك أخلاقيّ (moral skepticism) سوف يفضي في النهاية إلى عالم اعتباريّ.

- أنّها توصي بإعطاء المعنى أهميّة استثنائية<sup>(1)</sup>.

وإذا كانت ما بعد الحداثة، هي الاعتقاد باستحالة تأصيل أيّ معرفة؛ سواء أكانت دينية أم علمية، فإنّ الحداثة هي على العكس من ذلك؛ أي أنّها ليست سوى الإيمان بإمكانية تأصيل المعارف. وهكذا فإنّ وضعيّة ما بعد الحداثة تتّصف بعدم التأصيل؛ أي بعدم الاعتراف بأنّ هناك قيمًا ثابتة. وعلى هذا الأساس يلاحظ العلماء أنّ من صفات مذهب ما بعد الحداثة: الذاتية، والتفكيكية، والتعددية، والاختلاف، والعشوائية. ومن البين حال الاختلاف والخلاف في ما يقصد بـ "ما بعد الحداثة"، ما عدا احتمال أنّ يكون المقصود بها كونها تجسيدًا لردّ فعل ضدّ الحداثة أو انزياحًا عنها. وطالما استغلّق علينا معنى الحداثة والتبس، فإنّ ردّ الفعل هذا المعروف باسم "ما بعد الحداثة" يظلّ هو الآخر مستغلّقًا وبكيفية مضاعفة<sup>(2)</sup>.

(1) نقلًا عن إبراهيم، خضر: "الحداثة وما بعد الحداثة"، مجلّة الاستغراب، فصلية، السنة الأولى، العدد الأول، خريف 2015م.

(2) David Harvey The Condition of Postmodernity. Oxford. Basil Blackwell. 1989. P. 7.

وقد ظهر مفهوم "ما بعد الحداثة" أول ما ظهر في أعمال المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (ت: 1959)، فجعله يدل على أمارات ثلاث ميّزت الفكر والمجتمع الغربيين بعد منتصف القرن العشرين؛ وهي: اللاعقلانية، والفوضوية، والتشوش. ونقل هذا المفهوم إلى مجال النقد الأدبي للتأسي على تسطح الحركة الحداثيّة، وكان ذلك في الستينات على يد الناقلين الأدبيين ليسلي فيلدر وإيهاب حسن. وهكذا سيكتسب المصطلح تداولاً خلال السبعينات ليشمل بالتدريج المسرح والتصوير والسينما والموسيقى، لكن ذلك كله ترك السؤال عن عصر ظهور ما بعد الحداثة معلقاً، إلى درجة أن الباحثين انقسموا على أنفسهم في تقويم هذا العصر؛ فمنهم من عارض القول بمجيء عصر ما بعد الحداثة، ومنهم من قال بتحقيقه على مسرح التاريخ المعاصر<sup>(1)</sup>.

ويرى الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس أن التنظير لعصر ما بعد الحداثة ردّة فعل محافظة ويأئسه ضدّ التنوير، أما فريدريك جايمسون، الناقد الجمالي والأدبي، فيصف ادعاء ما بعد الحداثة بالنظرة الفصاميّة تجاه المكان والزمان، والتي أفرزتها سيطرة القوى الرأسماليّة متعدّدة الجنسيّات سريعة الخطوات على عصب الحياة المعاصرة. في حين اعتبر آلان بلوم، المفكر والفيلسوف السياسي، "بدعة" ما بعد الحداثة آخر رجفة تسعى إلى التخلي عن العقل واعتزال القول بإمكانية الكشف عن الحقيقة. وإذا كان هؤلاء قد عارضوا أطروحة ما بعد الحداثة، فإنّ ثلّة من المتحمّسين طفقوا يدافعون عنها، كما هو الحال مع ليوتار الذي اعتبر هذا العصر نهاية لـ "الحكايات الكبرى" التي حاولت تفسير الواقع تفسيراً شمولياً؛ لذلك وجدناه يصفه بكونه تجسيداً "لما آلت إليه حال الثقافة بعد التحوّلات التي عصفت بقواعد العلم والأدب والفنون في نهاية القرن

(1) انظر: الشيخ، محمد؛ الطائري، ياسر: مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة - حوارات منتقاة من الفكر الألماني المعاصر -، بيروت، دار الطليعة، ص10.

التاسع عشر<sup>(1)</sup>. إنَّ عصر ما بعد الحداثة هو ردّة فعل ضدَّ عصر الحداثة الذي شهد تمجيد النزعات الوضعيّة والتقنيّة والعقلانيّة، والإعلاء من شأن التقدّم الأحاديّ الجانب، والإقرار بالحقائق المطلقة، والتخطيط العقلانيّ للأنظمة الاجتماعيّة، وتوحيد أنماط إنتاج المعرفة. مقابل ذلك، نجد آراءً تصف عصر ما بعد الحداثة بأنّه "عصر التنوّع والاختلاف والتشظّي والتفتّت"<sup>(2)</sup>.

وحين يجري الكلام على ما بعد الحداثة لا يُراد بذلك في الغالب الأعمّ مرحلة، أو حقبة تاريخيّة ما، بل المراد وضعًا أو استدارة أو حالة فكريّة حدثت بالنسبة إلى المرحلة الغربيّة المعاصرة في الفكر الاجتماعيّ والإنسانيّ. لهذا سيذهب كثيرون من النظّار إلى التعامل مع ما بعد الحداثة؛ بوصفها موقفًا نقديًا ومراجعة للحداثة. في التراث الثقافيّ للغرب الحديث غالبًا ما يتمّ تقسيم تاريخ الغرب إلى سلسلة من الأحقاب: أوّلها الحقبة اليونانيّة الإغريقيّة القديمة، ثمّ حقبة العصور الوسطى، فالحقبة الجديدة والمعاصرة. وعلى أيّ حال لا بدّ من الالتفات إلى أنّ هذه التقسيمات هي تقسيمات اعتباريّة بشكل عامّ؛ بمعنى أنّنا عندما نتحدّث عن التاريخ، فإنّ الفكر والروح البشريّين هما عبارة عن أمر متّصل ومتربط الأجزاء. فالتقطيعات المتعلّقة بتقسيم مراحل التاريخ، لا تعدو أنّ تكون ذات صبغة اعتباريّة. فالغرض منها مقاصد تعليميّة، حيث يشار إلى حقبة من تاريخ البشر بناءً على سلسلة من الأحداث والوقائع، أو بناءً على استدارة وانعطافة طرأت على شؤونهم أو في الطبيعة أو المعتقدات والأفكار. وحين يجري الحديث عن مرحلة العصور الوسطى - على سبيل المثال - لا يكون القصد من ذلك هو الغرب بمفهومه المعاصر، أي الذي يشمل أميركا الشماليّة وكندا؛ إذ لم يكن لهذين القطرين وجود في العصور الوسطى؛ حيث اكتُشِفَ العالم الجديد لاحقًا، وعليه، فالمراد من العصور الوسطى

(1) Jean-François Lyotard, *La Condition Postmoderne* Coll. Critique. Paris, éd, Minuit. 1979. P 7.

(2) *Architectural Journal*. Précis: 6. 1987- 7 - 24.

هو خصوص البلدان الأوروبية بوصفها وارثة التفكير اليوناني والروماني. كذلك الحال عندما نتحدث عن المرحلة المعاصرة، حيث يجب أن نتأمل ما حدث من تحولات على مدى قرن أو قرنين من الزمن وربما أكثر، حيث ظهرت أفكار جديدة، وضعوا عليها عنوان المرحلة المعاصرة، وهذه المرحلة المعاصرة بلحاظ الحساب ورصد الأحداث ارتبطت إجمالاً بنهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر للميلاد. وهناك من مؤرخي العلوم الإنسانية من يقول إن المرحلة المعاصرة يجب أن تُؤرخ مع بداية القرن العشرين للميلاد. وما ذاك إلا لأن هذا التفكير المعاصر يمثل رؤية جديدة مستنبطة من صلب التفكير الحديث. وعليه فإن هذا يُثبت أن المعايير المستعملة في التحقيب وتقسيم المراحل التاريخية لا تحظى بالإجماع والتوافق الكامل<sup>(1)</sup>.

وفي سياق تأصيل اشتقاقات المفهوم يجري التمييز بين "ما بعد الحداثة" و"ما بعد الحديث"، وهذان مفهومان متميزان وكل له خصائصه وشروطه: تعني ما بعد الحداثة حرفياً "بعد الحداثة"؛ ذلك أنّ حركات الحداثة وما بعد الحداثة تُفهم على أنها مشاريع ثقافية أو أنها مجموعة من وجهات النظر. وهي تُستخدم في النظرية النقدية لتشير إلى نقطة انطلاق أعمال الأدب والدراما والعمارة والسينما والصحافة والتصميم، وكذلك في مجال التسويق والأعمال التجارية، وفي تفسير التاريخ والقانون والثقافة والدين في وقت متأخر من أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين. أمّا بخصوص "ما بعد الحديث" فهو يشير إلى وضعية تتعلق بنمط حياة وعادات تجاوزت ما قبلها بحكم التطورات المتسارعة. وبهذا المعنى فإن ما هو حديث هو ما يشير إلى شيء ما متصل بالحاضر.

(1) انظر: الأشتري، حسين الكلباسي: الأفق المأزوم هو السمة الكبرى لفكر ما بعد الحداثة، حوار ضمن كتاب جماعي بعنوان: حوارات تخصصية في علم الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، 2021م.

صاغ مصطلح ما بعد الحديث (post-modern) لأول مرة الرسّام الإنجليزي جون وتكنز تشابمان زهاء عام 1870م؛ لوصف ما سمّاه بـ "الرسم ما بعد الحديث"؛ وهو أسلوب الرسم الذي كان يُفترض أنّه أكثر طليعيّة من الانطباعيّة الفرنسيّة (Best and Kellner, 1991). ثمّ استعمل المصطلح لوصف "رجال ما بعد الحداثة" (1917)، "ما بعد الحداثة" (في الثلاثينيات، (Hassan, 1987)، "البيت ما بعد الحديث" (1949)، "العصر ما بعد الحديث" (1946)، "عالم ما بعد الحداثة" (Best and Kellner, 1991)، "حقبة ما بعد الحداثة" (1959)، "العقل ما بعد الحديث" (1961)؛ (Best and Kellner, 1991)، "أدب ما بعد الحداثة" (1965)، و"ما بعد الحداثيين" (1966)<sup>(1)</sup>.

وفي واحدٍ من الأعمال الأصيلّة في هذا الموضوع، يصف الفيلسوف والناقد الأدبيّ "فريدريك جيمسون" ما بعد الحداثة بأنّها "المنطق الثقافيّ المهيمن للرأسماليّة المتأخّرة"، التي هي، ممارسات ثقافيّة مترابطة ترابطاً عضويّاً مع العنصر الاقتصاديّ والتاريخيّ لما بعد الحداثة. و"الرأسماليّة المتأخّرة"، هي الفترة التي تسمّى أحياناً الرأسمالية الماليّة، أو ما بعد الثورة الصناعيّة، أو الرأسماليّة الاستهلاكيّة، أو العولمة، وسوى ذلك). وفق هذا الفهم إذن، يمكن أن ننظر إلى هيمنة فترة ما بعد الحداثة على أنّها بدأت في وقتٍ مبكرٍ من الحرب الباردة (أو، لإعادة الصياغة، بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية) واستمرّت حتى الوقت الحاضر.

بهذا المعنى تُفهم ما بعد الحداثة أيضاً على أنّها ردٌّ فعلٌ على الحداثة؛ ففي أعقاب الدمار الذي لحق بالفاشيّة، والحرب العالميّة الثانية، أصبح العديد من المثقّفين والفنّانين في أوروبا لا يتقنون بالحداثة السياسيّة والاقتصاديّة والمشروع الجماليّ برّمته، في حين أنّ الحداثة كانت ترتبط

(1) انظر: ستوري، جون: ضمن كتاب مفاتيح اصطلاحية، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، إعداد: طوني بينيت؛ وآخرون، ترجمة: سعيد الغانمي، بيروت، المنظمة العربيّة للترجمة، 2010م، ص 57.

في كثيرٍ من الأحيان بالهوية والوحدة والسلطة واليقين، وما إلى ذلك. وما من شك، فإن طرق الفهم المختلفة لـ "ما بعد الحداثة" توحى بأشياء مختلفة اعتماداً على السياق والخطاب. كما أن المصطلح يدلّ دلالات مختلفة؛ استناداً إلى ما يُستعمل للإشارة إليه، وهل هو نصوص ثقافية أم حقبة تاريخية أم نمط نظرية ثقافية. لذلك ربّما تتوفر أفضل طريقة لفهم معاني المصطلح المغايرة من خلال التمييز بين المصطلحات المتداخلة التي تجسدها ما بعد الحداثة: ما بعد الحداثة (postmodernity)، وثقافة ما بعد الحداثة، ونظرية ما بعد الحداثة<sup>(1)</sup>.

وغالباً ما تستخدم "ما بعد الحداثة"؛ بوصفها مصطلحاً تاريخياً للدلالة على الحقبة التي أعقبت الحداثة، والتي بدأت في عصر التنوير وانتهت في الستينيات (Jameson, 1984)، أو السبعينيات (Harvey, 1990). وما تشترك به هذه التفسيرات هو إصرارها على أن التغيرات الثقافية والاجتماعية التي أنتجت ما بعد الحداثة ترتبط ارتباطاً لا ينفصم مع التغيرات في الرأسمالية: من التركيز الأساس على الإنتاج إلى الاستهلاك (Bell, 1976)؛ وتغيّر تاريخي في الغرب من مجتمعات قائمة على إنتاج الأشياء إلى مجتمع قائم على إنتاج المعلومات و"المظاهر" (Baudrillard, 2000)؛ من رأسمالية «منظمة» حديثة إلى رأسمالية "مفككة" ما بعد حديثة (Lash and Urry, 1987)؛ من القومي إلى العالمي، الذي حقق منعطف "الضغط الزماني المكاني"، مولداً تسارعاً أثر في كل من السفر والاتصالات البعيدة<sup>(2)</sup>.

إذاً، يختصّ مصطلح «ما بعد الحداثة» بوجود عدد كبير من التعريفات تتساوى مع عدد من المظاهر التي تسفر عنها الممارسات المندرجة تحت هذا العنوان. فهذا المصطلح يشكل جزءاً من مفردات فروع المعرفة المختلفة: الأدب، والفن التشكيلي، والمعماري، ووسائل الإعلام، والسينما،

(1) انظر: ستوري، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، م.س، ص 578.

(2) انظر: م.ن، ص.ن.



والسياسة، وكذلك الفلسفة. بل أكثر من ذلك فإنّ هذا المصطلح دخل إلى مفردات علم الأديان والألاهوت في مراحل لاحقة من الأزمنة المعاصرة.

## 2- التباسات المفهوم وغموضه:

إنّ مفهوم "ما بعد الحداثة" وما تفرّع منه من مفاهيم جزئية بدأ مفهومًا مكتظًا باللبس والغموض؛ ومردّ ذلك إلى سلسلة من الأسباب؛ أبرزها: فقدان عنصر الاستقلالية عن تاريخ الحداثة المديد، وكذلك احتدام الجدل الذي أعقب الموجات النقدية العارمة لاختبارات الحداثة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر المنصرمين. وعليه، يختصّ مصطلح "ما بعد الحداثة" بوجود عدد كبير من التعريفات تتساوى مع عدد التجلّيات أو المظاهر التي تسفر عنها الممارسات المندرجة تحت هذا العنوان، فهذا المصطلح يشكّل جزءاً من مفردات فروع المعرفة المختلفة العديدة التي لا يكون لها في الواقع ما يقوم به بعضها لبعض: الأدب والفنّ التشكيليّ والمعماريّ، وسائل الإعلام والسينما والسياسة، وكذلك الفلسفة والألاهوت. وفي كلّ حالة يحدّد المصطلح اتجاهاً أو مرحلة في هذا الفرع أو العلم تكون مرتبطة به من وجوه عدّة. لكننا لا نستطيع ببساطة أن نقول إنه يوجد في الفلسفة اتجاه معيّن يمثّل في حدّ ذاته "ما بعد الحداثة" ويرتبط بها بشكل مميّز؛ ذلك أنّ أحد التأثيرات البارزة الملازمة لهذا المصطلح هي ما يمكن أن نسمّيه بـ "نفاذيّة النوع"؛ بمعنى أنّ تاريخ الفلسفة في سعيه إلى إدراك ما بعد الحداثة يصبح هو نفسه تاريخ العلم أو الفرع المعرفيّ الذي قُوبل بالقمع والنفي، بافتراض أنّه أحد الأشكال غير الفلسفيّة التي تسعى إلى إيجاد مكان لها على خريطة الفلسفة<sup>(1)</sup>.

ما بعد الحداثة - مقارنة تحليلية نقدية للمفهوم والتجربة -  
هاشمية علي رسلان

(1) انظر: هاند، ساند: فلسفة ما بعد الحداثة، ضمن كتاب "مستقبل الفلسفة في القرن الواحد والعشرين"، تحرير: أوليفر لي مان، ترجمة: مصطفى محمود، مراجعة: محمد رمضان بسطاوي سي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 301، 2004م، ص 142.

ونظراً إلى الغموض والتعددية اللذين يكتنفان هذا المصطلح، يحق لنا أن نراه يحمل عددًا من الخصائص الأساسية المشتركة في أي نص، والتي تنشأ عن النزعات الرئيسة الفكرية والسياسية للقرن العشرين، وتنقل بدقة عن واحدة أو أكثر من هذه النزعات. فهناك حركتان أو نزعتان أو اتجاهان من هذه الاتجاهات لا يمكن الاستغناء عنهما هنا؛ وهما: الحداثة، والماركسية. ففي أحد المعاني نحتاج عند تعريف "ما بعد الحداثة" إلى أن نفهم بوضوح ما الذي نصفه أو نصوره بمصطلحي "حديث" و"حداثة". إن هذين الاصطلاحين يمكن أن نجد لهما تفسيرات مختلفة بقدر اختلاف التفسيرات لاصطلاح "ما بعد الحداثة". وبشكل عام، فإذا كانت الحداثة تشير إلى فلسفة المجتمعات الغربية وثقافتها من 1850 إلى 1950، أي الفترة المتفجرة التي حقق فيها مجتمع ما بعد الثورة والمجتمع البورجوازي إنجازات هائلة، تكنولوجية وفكرية، وقاسى ويلات حربين عالميتين، وشهد تحولاً حضارياً كاملاً في ظروف المعيشة والعلاقات الاجتماعية، فإن ما بعد الحداثة تأخذ في اعتبارها تاريخ الحداثة وقيمها. وينبغي الاعتراف - كما تقول الباحثة الإنكليزية ساند هاند - بأن ما بعد الحداثة توجد باعتبارها خبرتنا أو معرفتنا المتأخرة بالحداثة، وبأنها رد فعلنا أو هي استجابتنا الفكرية والأخلاقية والجمالية لهذه النهاية؛ أي نهاية الحداثة. وهذا الادعاء التاريخي الأساس لما بعد الحداثة يقودنا بشكل طبيعي تماماً إلى فحص علاقتها الحرجة مع الحداثة. وهكذا فإن رد الفعل تجاه نهاية الحداثة لا يأخذ فقط شكل التجريبية الجيدة، التي قد تعلن نفسها؛ بوصفها تحدياً للتقاليد والسلطة أو ازدرائهما، إلى جانب الترحيب بالجديد واعتناق الصادم أو الغريب والدخيل، بل إنها تطرح نفسها - أيضاً - على اعتبار أنها فرصة لتجريد الافتراضات الأساسية والمؤسسات الراسخة من الرؤية الحداثيّة، وإخضاع هذه العوامل أو القوى الفنيّة والإيديولوجيّة للتحليل

النقديّ (وبالطبع للتحليل الفنّي والأيدولوجيّ؛ بقدر متساوٍ)<sup>(1)</sup>.

وفي المضمار نفسه، وبعيداً عن رؤية ما بعد الحداثة، على أنّها تزوّدنا بهذا الكمال والاستقلاليّة، فإنّ التحليل الماركسيّ كثيراً ما يدينها ويشجبها، كونها مجرد ناتج ثانويّ من مخلفات المجتمع الرأسماليّ المتأخّر، فهي تشبه من وجهة نظره أهدافاً ووسائل للاستهلاك، أمّا المحلّل النقديّ فريدريك جيمسون، فقد كشف بصيغة نقديّة صريحة شديدة الوضوح عمّا يمكن أن يتحقّق حينما تكتمل عمليّة "الحداثة"؛ لذلك فهو يقدم مفهوم "ما بعد الحداثة" على أنّه "محاولة للتفكير في الحاضر تاريخياً في عصر غمر فيه النسيان كفيّة التفكير التاريخيّ في المقام الأوّل"<sup>(2)</sup>.

### 3- وحدة المفهوم وكثرته:

لدينا ثلاث كلمات تتلازم وتتداخل في ما بينها لدى تعريف مصطلح ما بعد الحداثة وهي: ما بعد الحداثة؛ بوصفها مصطلحاً كلياً، ثمّ ما بعد الحداثيّة؛ بوصفها تجربةً تاريخيّةً، ثمّ الحداثيّة بما هي تعبير عن الميول والنزعات الفكرية والأيدولوجية للحداثة. ولكنّ ما هي عناصر التمايز بين الكلمات الثلاث؟

وقد عرّفت ما بعد الحداثة بأشكال مختلفة بتعايير العلاقة بين الخطاب الفكريّ وخطاب الدولة، على أنّها شرط تحدّده سخرية متشائمة شاملة مُسَهَبَة، وحسّ خائف من الواقعيّة المتطرّفة والصورة الزائفة. وإنّ التناقضات المتجلّية بين بعض تسميات ما بعد الحداثة هذه لا تفاجئ من يستمتع بالتعميمات عن العصر الحاضر. مع ذلك، هناك كثيرون يرون أنّ ما بعد الحداثة تشتمل على نقدٍ للمذهب الإنسانيّ (Humanism) والمذهب

(1) انظر: هاند، فلسفة ما بعد الحداثة، م.س، ص143.

(2) Frederic Jameson, Postmodernism, The cultural logic of Late capitalism, Jameson, 1991: ix

الوضعيّ (Positivism) وعلى فحص لعلاقتهما بأفكارنا عن الذاتية<sup>(1)</sup>. لا بدّ من الإشارة إلى أنّ أوّل من استخدم كلمة "ما بعد حداثي"، بمعنى مفارقٍ للمشهد المعاصر عن المشهد الحديث في عام 1917، كان الفيلسوف الألمانيّ رودولف بانفيتش (Rudolf Panwitz)، بغية وصف عديمة ثقافة القرن العشرين، المستورثة من الفيلسوف الألمانيّ فريدريك نيتشه. وفي مقدّمة ترجمته لكتاب الباحثة البريطانية ليندا هتشيون، يميّز أستاذ الفلسفة في الجامعة الأميركيّة في بيروت البروفسور حيدر حاج إسماعيل بين ثلاث ظواهر، هي: الحداثة (Modernity) والحداثويّة (Modernism) وما بعد الحداثيّة (Postmodernism). فالحداثة -كما يقول- تفيد العلم، والموضوعيّة، والتقدّم، والحرّيّة، والفرد، وما شابه، وأمّا زمن الحداثة، فهو الزمن الذي تجلّت فيه تلك الظواهر. ولكي يبيّن الفروقات والتمييزات بين مصطلحي "الحداثويّة" وما بعد الحداثيّة يضع الكاتب قائمة من ست عشرة خاصّة من خواصّها المتقابلة، على الشكل التالي<sup>(2)</sup>:

الحداثويّة (Modernism)	ما بعد الحداثيّة (Postmodernism)
1- القصص العظمى	1- ضد القصص العظمى
2- الأفكار الكليّة	2- التفكيك للكليّات
3- الأصل	3- الاختلاف
4- المرجعيّة الواحدة أو المركز	4- التعدديّة أو التوزّع
5- التآليف	5- ضد التآليف

(1) انظر: هيتشيون، ليندا: سياسة ما بعد الحداثة، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، بيروت، المنظمة العربيّة للترجمة، 2009م، ص102.

(2) انظر: هتشيون، سياسة ما بعد الحداثة، م.س، المقدّمة، ص8-9.

6- الانغلاق	6- الانفتاح
7- التراتبية	7- الفوضى
8- القصديّة (وجود الغاية)	8- اللعب
9- الخطّة أو النظام	9- الصدفة
10- التشبيه	10- التضاد
11- الحضور	11- الغياب
12- القارئ	12- الكاتب
13- الحتمية	13- الاحتمية
14- العمق	14- السطح
15- الابتعاد	15- المشاركة
16- العرض	16- الرغبة

أما خصائص المابعد حدثيّة، فقد أوردتها الكاتب استناداً إلى ليندا هيتشيون على النحو التالي:

- 1- سقوط صفات عدم الانحياز، والموضوعيّة، والتوازن، وغياب الغاية، فكلها أيديولوجيا.
- 2- سقوط الفكر الثابت والنخبويّ (Single Vision)، والكلّيّ (Totalitiation).
- 3- سقوط المركز في كلّ مجال ومكان وزمان وخطاب كلاميّ (Decentredness).
- 4- سقوط التسلسل الزمنيّ للأحداث التاريخيّة (De- Chronologization).
- 5- سقوط التعريف والتحديد والتصنيف والتبويب، وكلّ نظام مشابه (De- Categorisation).

- 6- سقوط التمييزات الثنائية، مثل ما كان بين "الحقيقة" و"الخرافة".
  - 7- نشوء الميتاخرافة في كتاب التاريخ، ومعها سقوط تصنيف الزمان إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل، وخلط الفترات والحقب الزمنية.
  - 8- سقوط مبدأ عدم التناقض، الذي هو حجر الأساس في التفكير والكتابة الحدائويين. وسقوط مبدأ الاتساق المنطقي أيضاً الذي يعتبر الهدف الأخير للحدائوية.
  - 9- تزعزع مفهوم الهوية.
  - 10- تزعزع الأمن والاستقرار والتوازن<sup>(1)</sup>.
- لقد كُتبت مطالعات كثيرة عن طبيعة ما بعد الحداثة وهويتها، غير أنّ الشيء الأكيد هو أنّ هذه الكتابات فتحت على المزيد من الجدل في المفهوم.

(1) انظر: هتشيون، سياسة ما بعد الحداثة، م.س، المقدمة، ص 10.